

اجتهادات الثورة .. وصورة الطاغية

عندما يقرأ أى عربى ما كتبه الكاتب السورى طلال المهيمى ذات يوم عن صورة الطاغية الأسبق حافظ الأسد، يشعر بأنه يعبر عنه. كتب المهيمى: (أذكر حين كنت أصدق فى صورة حافظ الأسد مطبوعة أو معلقة فى أى مكان صورة ثابتة لا تتغير. لا تكبر ولا تهرم. لا تمرض ولا تسعل ... (صورة جرى تدجين أجيال من الأطفال على أنها لبطل منقذ خارق).

وتعود أهمية هذا الكلام عن الصورة إلى أنها أداة رئيسية فى عملية صناعة الزعيم الطاغية فى العصر الحديث منذ أن صارت من أهم المواد المستخدمة فى هذه الصناعة، إلى جانب اللغة أو الخطاب الذى يعمل فريق متخصص لإخراجه بالطريقة التى تحقق التأثير المطلوب، ويتلقفه فريق ثان من "الكومبارس" تطوعاً أو إرغاماً لترويجه ونسج الأساطير حوله.

وبسبب مركزية دور الصورة فى صناعة الزعيم الطاغية، يتغير أسلوب التعامل معها تغيراً كاملاً حين يعود الوعي إلى الناس فيثورون عليه. فالصورة التى كانت "مقدسة" تطل على الشعب من كل مكان لتذكرهم بما يمكن أن يلقاه من يخرج على الصف، وكان رفعها فى المناسبات تعبيراً عن أعلى مراتب الوطنية، هى نفسها التى تُمزق أو تُحرق حين تدور الدائرة على الزعيم الطاغية.

وينطبق ذلك على التماثيل التى تُصنع للأشد طغياناً، إذ يكتسب تحطيمها عند إسقاطه مغزى يتجاوز الطابع الرمزي لهذا الفعل، كما حدث لتمثال

صدام حسين الذى أُعتبر أحد أهم مشاهد عام 2003. وفى هذا المستوى الأعلى للطغيان، والذى كان صدام حسين أحد أبرز حالاته، لا يقتنع الطاغية وأركان نظامه بالصورة الثابتة التى لا تتغير. فنجد إلى جانبها، لوحات عدة تمثله جالساً أو واقفاً، ومتبسماً مرة ومكشراً عن أنيابه أخرى، مع تنوع فى الثياب، ربما لدرء الملل عن الناس الذين يصبحون على وجه الزعيم ويُمسون معه.

وما أن يتحرر ضحايا صناعة صورة الزعيم من خوفهم ويثوروا عليه حتى تصبح هذه الصورة، وما يعادلها من لوحات وتماثيل، هدفاً للغضب المتراكم فى صدورهم.

وينطوى استهداف صورة الطاغية فى هذا السياق على حالة نفسية، وليست فقط سياسية. فالصورة الممزقة أو المحطمة تعبر عن نظرة المتحررين من الطاغية إليه وقد أصبح عارياً، بعد أن فقد ثوب السلطة الذى اجتهد فى حياكته أعوان أجادوا لسنوات أداء مهمتهم فى خداع الناس وطمس وغيب عيهم. فالعلاقة وثيقة بين الصورة المادية التى يمزقها الثائرون بعد أن كانت تحاط بطقوس شبه مقدسة، والصورة السياسية التى يكتشفون حقيقتها بعد أن كانوا مخدوعين فيها.